محاضرة نظريات التعلم

المحاضرة الأولى: مدخل مفاهيمي

تعريف التعلّم:

يُعدّ التعلّم من المفاهيم المحورية في علم النفس التربوي والعلوم المعرفية، وقد حظي باهتمام واسع نظراً لدوره الأساسي في تفسير السلوك الإنساني واكتساب المعارف والمهارات. يُعرَّف التعلّم عموماً على أنّه عملية داخلية مستمرة ينتج عنها تغير شبه دائم في السلوك أو في الإمكانات السلوكية للفرد، ويكون هذا التغير ناتجاً عن الخبرة أو الممارسة أو التفاعل مع البيئة، وليس نتيجة للنضج البيولوجي أو الحالات الفسيولوجية المؤقتة .(Schunk, 2020) ويؤكد هذا التعريف على أن التعلّم لا يُلاحظ مباشرة، وإنما يُستدل عليه من خلال آثاره السلوكية أو المعرفية.

من منظور سلوكي، يُنظر إلى التعلّم على أنّه تغير قابل للقياس في السلوك الظاهر نتيجة الارتباط بين المثيرات والاستجابات أو نتيجة التعزيز والعقاب، كما هو الحال في نظريات بافلوف وسكنر، حيث يُعد التكرار والتعزيز عناصر أساسية لترسيخ التعلم (Skinner, 1953). غير أن هذا التصور تعرّض للنقد لكونه يُهمل العمليات العقلية الداخلية التي تلعب دوراً مركزياً في التعلم.

أما الاتجاه المعرفي، فيوسّع مفهوم التعلّم ليشمل التغيرات التي تطرأ على البنى المعرفية والتمثيلات الذهنية، مثل الانتباه، والذاكرة، وحل المشكلات، واتخاذ القرار. ووفقاً لهذا الاتجاه، فإن التعلّم يُعد عملية نشطة يقوم فيها المتعلم ببناء المعرفة وتنظيمها وربطها بالخبرات السابقة، وليس مجرد استقبال سلبي للمعلومات .(Ormrod, 2020) ويُبرز بياجيه مثلاً دور التوازن المعرفي وعمليتي الاستيعاب والمواءمة في تطور التعلم عبر المراحل العمرية.

وفي السياق العصبي، يُعرّف التعلّم على أنه تغير وظيفي وبنيوي في الشبكات العصبية نتيجة الخبرة، حيث تؤدي الممارسة والتجربة إلى تعزيز أو إضعاف الوصلات التشابكية بين الخلايا العصبية، وهي العملية المعروفة باللدونة العصبية (neuroplasticity) (Kandel et al., 2021). ويُظهر هذا المنظور أن التعلم ليس مجرد ظاهرة نفسية، بل عملية بيولوجية عصبية قابلة للرصد والدراسة.

كما تُبرز المقاربات الاجتماعية–الثقافية، خصوصاً نظرية فيغوتسكي، أن التعلّم عملية اجتماعية بالأساس، تتم من خلال التفاعل مع الآخرين واستخدام اللغة كأداة معرفية، حيث تلعب المنطقة القريبة من النمو دوراً حاسماً في انتقال المتعلم من مستوى الأداء الفعلي إلى مستوى الأداء الكامن.(Vygotsky, 1978)

وبناءً على ما سبق، يمكن القول إن التعلّم عملية متعددة الأبعاد، تتداخل فيها العوامل السلوكية والمعرفية والعصبية والاجتماعية، ويُعد أساساً لتطور الفرد أكاديمياً ومهنياً واجتماعياً، كما يمثل الركيزة الجوهرية لفهم الاضطرابات التعلمية واللغوية والتدخلات التربوية والعلاجية.

قائمة المراجع:

Kandel, E. R., Koester, J. D., Mack, S. H., & Siegelbaum, S. A. (2021). Principles of neural science (6th ed.). McGraw-Hill.

Ormrod, J. E. (2020). Human learning (8th ed.). Pearson Education.

Schunk, D. H. (2020). Learning theories: An educational perspective (8th ed.). Pearson.

Skinner, B. F. (1953). Science and human behavior. Macmillan.

Vygotsky, L. S. (1978). Mind in society: The development of higher psychological processes. Harvard University Press.